المبحث الرابع

صوارف تحول دون التدبر

صوارف تحول دون التدبر

١ ـ أمراض القلوب والإصرار على الذنوب:

وهي من أعظم ما يصد القارئ عن اتعاظ قلبه وانشراح صدره لمواعظ القرآن وحِكَمه وأحكامه. وفي هذا يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [**الأعراف**: ١٤٦]، قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «وليتخل التالي عن موانع الفهم، ومن ذلك أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى بهوى مطاع، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة»(١).

قال الزركشي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو هو مصر على ذنب، أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقيق أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض»(٢).

وإن من أعظم المعاصي التي تصد القلب عن تدبر القرآن تعلقه بشهوات الدنيا؛ فإن القلب لا يمكنه أن يسمو إلى المعالي وعظيم الفضائل، ويشتاق ويطمئن إلى كلام الله، وهو يعيش مع الجيف والنتن وسفاسف الهمم التي تحوم عليها همم الفساق وأراذل الناس، ومن صور ذلك سماع الأغاني والتلذذ بكلماتها.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيته عن أثر سماع الأغاني على القلب والإيمان:

---

(١) مختصر منهاج القاصدين، ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) البرهان في علوم القرآن، ٢ / ١٩٧.

والله إن سماعهم في القلب والإيمان؛ مثل السم في الأبدانِ
فالقلب بيت الرب جل جلاله حباً وإخلاصاً مع الإحسانِ
فإذا تعلق بالسماع أحاله عبداً لكل فلانة وفلانِ
حُبُّ الكتاب وحُبُّ ألحان الغنا في قلب عبد ليس يجتمعانِ(١)

٢ ـ انشغال القلب وشرود الذهن:

فإنه يصرف عن تدبر القرآن والتأثر به لغفلة القلب، ولو كان قلبه حياً لكنه مشغول عنه بغيره، فهو غائب القلب ليس حاضراً؛ فهذا لا تحصل له الذكرىٰ مع استعداده ووجود قلبه، ومثله البصير الطامح ببصره إلىٰ غير المطلوب(٢).

ومن أكثر الشواغل التي تذكر حين التلاوة أن يكون همّ القارئ إتمام السورة دون أن يكون همه الفهم والاتعاظ والعبرة التي تحويها الآيات.

ولهذا قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «يا ابن آدم، كيف يرق قلبك وإنما همتك في آخر السورة؟!»(٣).

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت . . . الثاني: رجل له قلب حي . . . لكنه مشغول ليس بحاضر؛ فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرىٰ. والثالث: رجل حي القلب مستعد، تليت عليه الآيات فأصغىٰ بسمعه وألقىٰ السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمع، فهو شاهد القلب، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات»(٤). ويقول ـ رحمه الله ـ: «فإذا

---

(١) من القصيدة النونية، لابن القيم، فصل في سماع أهل الجنة، انظر القصيدتين النونية والميمية، ص ٢٢٤.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ١ / ٤٤٢؛ حيث ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أن هذه الحالة بين من قلبه ميت، وبين من قلبه حي مستعد.

(٣) مختصر قيام الليل، للمروزي، ص ١٥٠. وقد نبه إلىٰ هذا الأمر عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، انظر: ص ٢٤، وكذلك الآجري ـ رحمه الله ـ، انظر: ص ١٨، ص ١٠٢.

(٤) مدارج السالكين، ١ / ٤٤٢.

حصل المؤثر: وهو القرآن. والمحل القابل: وهو القلب الحي. ووجد الشرط: وهو الإصغاء. وانتفى المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر: وهو الانتفاع والتذكر»(١).

٣ ـ قصر الخشوع على أحوال أو آيات معيَّنة:

فمن الناس من يقصر الخشوع في رمضان، أو في القنوت، أو عند خشوع الإمام، أو عند آيات العذاب وذكر النار وأهوال القيامة. ومعلوم أن أسباب الخشوع ودواعيه متعددة؛ ففعله ﷺ عند التلاوة فيه خشوع وتدبر؛ فهو ينزه ويسبح عند آيات الأسماء والصفات، ويسأل الله من فضله عند ذكر جنته وإنعامه وفضله ورحمته، ويستعيذ عند ذكر النار والعذاب(٢).

ويذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ أنواعاً شتى يحصل عندها الخشوع والتأثر بالقرآن، فيقول في ذلك: «الشهقة التي تعرض عند سماع القرآن أو غيره لها أسباب:

أحدها: أن يلوح له عند السماع درجة ليست له فيرتاح إليها؛ فتحدث له شهقة شوق.

ثانيها: أن يلوح له ذنب ارتكبه؛ فتحدث له شهقة خوف وخشية.

ثالثها: أن يلوح له نقص فيه لا يقدر على دفعه عنه؛ فيُحدث له ذلك شهقة حزن وندم.

رابعها: أن يلوح له كمال صفات خالقه، ويرى الطريق إليه مسدوداً عنه؛ فيحدث له شهقة أسف وحسرة.

خامسها: أن يكون قد انشغل عن ربه، واشتغل بغير ذكره فيُذكِّره القرآن ربَّه

---

(١) كتاب الفوائد، ص ١.

(٢) ينظر شواهد ذلك: ص ١٢٥.

فيلوح له جماله ويرىٰ بابه مفتوحاً، والطريق ظاهراً؛ فيحدث له شهقة فرح وسرور.

وبكل حال فسبب الشهقة قوة الواردات علىٰ القلب من المعاني العظيمة، وضعف القلب عن تحملها، والقصور فيما تستحقه من تعظيم، وما يلزمها من أعمال. والخير أن تعمل تلك الواردات في باطنه داخلاً، وذلك أقوىٰ له وأدوم، فإن أظهره[(١)] ضعف أثره وأوشك انقطاعه. هذا حكم الشهقة من الصادق، فإن الشاهق إما صادق أو موافق[(٢)] أو منافق»[(٣)].

٤ ـ ترك التدبر تورعاً عن القول في كلام الله بغير علم:

والاعتقاد أن مهمة القارئ تنحصر في القراءة دون التدبر والتأمل، تاركاً التأمل والنظر في المعنىٰ للعلماء والمفسرين، فيصرف القارئ همته إلىٰ كثرة القراءة وسلامة التلاوة، يقول عن ذلك ابن هبيرة ـ رحمه الله ـ: «ومن مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن؛ لعلمه أن الهدىٰ واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتىٰ يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً»[(٤)].

ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ومن قال: إن له تأولاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه؛ ففي قلبه منه حرج»[(٥)].

وقال الشاطبي ـ رحمه الله ـ: «فمن حيث كان القرآن معجزاً أفحم الفصحاء

---

(١) لمعرفة أحوال من يصعق ويغشىٰ عليهم وأحكامها، انظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح: ٢/ ٣٠٥؛ والجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٧/ ٣٦٦.

(٢) ومن ذلك ما يروىٰ: أن عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ بكىٰ فبكت امرأته، فقال لها: «ما يبكيك؟ قالت: أبكاني الذي أبكاك. قال: أبكاني أني وارد النار؛ فلا أدري أناج منها أم لا؟»، مختصر قيام الليل، ١٤٤.

(٣) بتصرف من كتاب الفوائد، ص ١٩٨؛ وعن أنواع البكاء انظر: زاد المعاد، ١/ ١٨٤.

(٤) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب ـ رحمه الله ـ، ٣/ ٢٧٣.

(٥) التبيان في أقسام القرآن، ص ١٤٤، فصل ٦٠.

وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله؛ فذلك لا يخرجه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، ميسراً للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى، لكن بشرط الدربة في اللسان العربي . . . إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق، وذلك مرفوع عن الأمة. وهذا من جملة الوجوه الإعجازية فيه؛ إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب، مفهوم معقول، ثم لا يقدر البشر على الإتيان بسورة مثله . . . وقد قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر: ١٧] . . . وعلى أي وجه فرض إعجازه؛ فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه وتعقل معانيه، ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]، فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم»(١).

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ: «قول متأخري الأصوليين: إن تدبر القرآن العظيم وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا لمجتهد خاصة . . . قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما . . .

ومما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة . . . فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به . . .». ثم فصل ـ رحمه الله ـ القول في الرد على من قال بذلك(٢).

---

(١) الموافقات، ٣/ ٨٠٥.

(٢) حيث ذكر ـ رحمه الله ـ في تفسيره، ٧/ ٤٤٧، مقالة أحمد الصاوي في حاشيته على الجلالين، وأفاض ـ رحمه الله ـ في بيان بطلان كلامه بما يشفي ويكفي.

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «فالقول بمنع العمل بما علم من الكتاب والسنة حتىٰ يحصل رتبة الاجتهاد المطلق؛ هو عين السعي في حرمان جميع المسلمين من الانتفاع بنور القرآن. . . يجب علىٰ كل مسلم يخاف العرض علىٰ ربه يوم القيامة أن يتأمل فيه ليرىٰ لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمىٰ والطامة الكبرىٰ التي عمت جل بلاد المسلمين من المعمورة: وهي ادعاء الاستغناء عن الكتاب وسنة رسوله استغناء تاماً في جميع الأحكام من عبادات، ومعاملات، وحدود وغير ذلك بالمذاهب المدونة، وبناء ذلك علىٰ مقدمتين:

أحدهما: أن العمل بالكتاب والسنة لا يجوز إلا للمجتهدين.

والثانية: أن المجتهدين معدومون.

فإن كان قصدهم أن الكتاب والسنة لا حاجة إلىٰ تعلمهما، وأنهما يغني عنهما غيرهما؛ فهذا بهتان عظيم، ومنكر من القول وزور. وإن كان قصدهم أن تعلمهما صعب لا يُقدر عليه فهو أيضاً زعم باطل؛ لأن تعلم الكتاب والسنة أيسر من تعلم مسائل الآراء والاجتهاد المنتشرة، مع كونها في غاية التعقيد والكثرة، والله يقول ـ جل وعلا ـ في سورة القمر مرات متعددة: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾. . . فهو كتاب ميسر، بتيسير الله لمن وفقه الله للعمل به. . .

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلىٰ الأرض ليستضاء به. . . قال ـ تعالىٰ ـ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا**﴾ [الشورى: ٥٢]. . .

ولتعلم أن كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولىٰ؛ لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك. . . فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ، ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين»(١).

---

(١) أضواء البيان، ٧/ ٤٣٠، ٤٣٧.

ويجتهد الصنعاني ـ رحمه الله ـ في بيان حجج يردُّ بها علىٰ من سلك هذا المسلك، وملخص ما قال: «إن الله ـ سبحانه ـ كمَّل عقول العباد، ورزقهم فهم كلامه. ثم إن فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج في معناها إلىٰ علم النحو، ولا إلىٰ علم الأصول، بل في الأفهام والطباع والعقول ما يجعلها تسارع إلىٰ معرفة المراد؛ فإن من قرع سمعه قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، يفهم معناه من دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير. ثم إنك ترىٰ العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً، ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد. ثم إن هؤلاء العامة يَحْضُرُون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون، فيكثر منهم البكاء والنحيب. ثم إنك تراهم يقرؤون كتباً مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون معناها، ويعتمدون عليها، ويرجعون في الفتوىٰ والخصومات إليها.

فيا ليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنَّة بالمنع عن معرفة معانيها، وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتىٰ جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام، قد ضربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وأن استنباط معانيها قد صار حِجْراً محجوراً، وحرماً محرماً محصوراً؟!»[1].

ولم يعلم من حرم نفسه التدبر خوفاً من القول علىٰ الله بغير علم، أن تفسير

(١) إرشاد النقاد إلىٰ تيسير الاجتهاد، ص ٣٦، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، الجزء الأول، بتصرف يسير.

مراد الله واستنباط الأحكام الشرعية هي منزلة خاصة بالعلماء والمفسرين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتذكر، والادكار، والاتعاظ، ومحاسبة النفس، لا عذر له في تركها.

٥ ـ قَصْر الهمَّة على كثرة القراءة فقط:

عملاً بآيات وأحاديث صحت في فضلها، ولكنه هجر آيات وأحاديث صريحة في الحث على التدبر والخشوع، والتأثر بالمعاني والعظات.

ويعضد ذلك اقتصار كثير من المذكرين والوعاظ على الروايات المنقولة عن السلف في كثرة القراءة، وعدد الختمات في وقت وجيز، والإعراض عن نقل نهيهم عن سرعة القراءة والعجلة في التلاوة، أو ما نقل عنهم في تعظيمهم شأن التدبر والحض عليه، أو ما روي من تأثرهم بالتلاوة ووقوفهم عند المعاني. فربما اقتصر أحدهم على نقل كلام ابن رجب ـ رحمه الله ـ الذي يقول فيه: «وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، أما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان . . . فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما، وعليه دلَّ فعل غيرهم»(١). وتخصيصه النهي على المداومة يحتاج إلى دليل؛ حيث يقول سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ: «وبعض السلف قال: يستثنى من ذلك أوقات الفضائل، وإنه لا بأس أن يختم كل ليلة أو في كل يوم، كما ذكروا هذا عن الشافعي وعن غيره، ولكن ظاهر السنَّة: أنه لا فرق بين رمضان وغيره، وأنه ينبغي له أن لا يتعجل، وأن يطمئن في قراءته وأن يرتل، كما أمر النبي ﷺ عبد الله بن عمرو، فقال: «اقرأه في سبع»(٢)، هذا آخر ما أمره به، وقال: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»(٣)، ولم يقل: إلا في رمضان؛ فحَمْلُ بعض السلف هذا على غير

---

(١) لطائف المعارف، ص ٢٠٢.

(٢، ٣) ينظر تخريج الحديث، ص ١٢٣، وبسط المسألة في فقرة (مدة ختم القرآن)، ص ١٢١.

رمضان محل نظر، والأقرب ـ والله أعلم ـ أن المشروع للمؤمن أن يعتني بالقرآن ويجتهد في إحسان قراءته، وتدبر القرآن والعناية بالمعاني، ولا يعجل. والأفضل أن لا يختم في أقل من ثلاث، هذا هو الذي ينبغي حسب ما جاءت به السنَّة، ولو في رمضان»[(١)].

فاستحباب الإكثار من القراءة في الأحوال الفاضلة أمر ظاهر، ولكن لا يعني هذا الاستحباب ترك التدبر والعجلة والهذرمة فإن هذا منهي عنه، فقد قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: (وقد رأيت من يجمع الناس ويقيم شخصاً ويقرأ في النهار الطويل ثلاث ختمات؛ فإن قصر عِيب، وإن أتم مُدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه، ويريهم إبليس أن في كثرة التلاوة ثواباً، وهذا من تلبيسه؛ لأن القراءة ينبغي أن تكون لله ـ تعالىٰ ـ لا للتحسين بها، وينبغي أن تكون علىٰ تمهل، وقال ـ عز وجل ـ: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وقال: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤])[(٢)]، و (قد لبس علىٰ قوم بكثرة التلاوة فَهُم يهذُّون هذّاً، من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة، وقد روىٰ جماعة من السلف أنهم كانوا يقرؤون القرآن في كل يوم أو في كل ركعة، وهذا يكون نادراً منهم، ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلىٰ العلماء، وقد قال الرسول ﷺ: «لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث»)[(٣)].

٦ ـ قَصْر الهمَّة على تحقيق القراءة وحسن التلاوة وقوة الاستحضار، مع هجر تدبُّره وضعف الهمَّة عن العمل به:

يقول في ذلك ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «وليتخل التالي عن موانع الفهم،

(١) الجواب الصحيح من أحكام صلاة الليل والتراويح، ص ٢٧.
(٢) تلبيس إبليس، ص ١١٠.
(٣) تلبيس إبليس، ص ١٣٨.

مثل أن يخيل له الشيطان أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه مخرجه فيصرف همَّته عن فهم المعنى»(١)، أو يكون حاله حال من قرأ القرآن للدنيا، حيث وصف حاله الآجري ـ رحمه الله ـ فقال: «يفخر على الناس بالقرآن، ويحتج على من دونه في الحفظ، ليس للخشوع في قلبه موضع، كثير الضحك والخوض فيما لا يعنيه، هو إلى استماع حديث جليسه أصغى منه إلى استماع من يجب عليه أن يستمع له، فهو إلى كلام الناس أشهى من كلام الرب عز وجل، لا يخشع عند استماع القرآن، ولا يبكي ولا يحزن، همَّته حفظ الحروف، إن أخطأ في حرف ساءه ذلك لئلا ينقص جاهه عند المخلوقين، فتنقص رتبته عندهم، فتراه محزوناً مهموماً بذلك، وقد ضيع فيما بينه وبين الله، مما أمر به في القرآن أو نهى عنه، غير مكترث به، كثير النظر في العلم الذي يتزين به عند أهل الدنيا ليكرموه بذلك، قليل المعرفة بالحلال والحرام، تلاوته للقرآن تدلُّ على كره في نفسه وتزين عند السامعين منه، ليس له خشوع فيظهر على جوارحه، إذا دَرس القرآن، أو دَرس عليه غيره همَّته متى يقطع، ليس همته متى يفهم، لا يتفكر عند التلاوة بضروب أمثال القرآن، ولا يقف عند الوعد والوعيد، يأخذ نفسه برضى المخلوقين، ولا يبالي بسخط رب العالمين، يحب أن يُعرف بكثرة الدرس، ويظهر ختمة القرآن ليحظى عندهم، قد فتنه حسن ثناء الجهلة، أخلاقه أخلاق الجهال، إن أكل فبغير علم، وإن شرب فبغير علم، وإن لبس فبغير علم، وإن جامع أهله فبغير علم، وإن نام فبغير علم، وإن صحب أقواماً أو زارهم أو سلَّم عليهم فبغير علم، وغيره ممن يحفظ جزءاً من القرآن مطالبٌ لنفسه بما أوجب الله عليه من علم أداء فرائضه، واجتناب محارمه، وإن كان لا يؤبه له، ولا يشار إليه بالأصابع»(٢).

(١) مختصر منهاج القاصدين، ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٢) أخلاق حملة القرآن، ص ٤٤، باب أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به الله عز وجل، بتصرف يسير.

٧ ـ تقديم ما دون التدبر من العلم والعمل، والاشتغال به عن التدبر:

وذلك نتيجة الإخلال بترتيب أولويات العلم ومقاصده والعمل ومنافعه، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ عن كتاب الله: «حقٌ على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستذكار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله في استدراك علمه نصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله في العون عليه، فإنه لا يدرك إلا بعونه؛ فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصاً واستدلالاً، ووفَّقه الله للقول والعمل بما علم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة»(١).

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: أيما طلب القرآن أو العلم أفضل؟ فأجاب: «أما العلم الذي يجب على الإنسان عيناً كعلم ما أمر الله به وما نهى الله عنه، فهو مقدم على حفظ ما لا يجب من القرآن؛ فإن طلب العلم الأول واجب وطلب الثاني مستحب، والواجب مقدم على المستحب.

وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدم على كثير مما تسميه الناس علماً، وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضاً مقدم في التعلم في حق من يريد أن يتعلم الدين من الأصول والفروع؛ فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات، أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين، . . . والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به؛ فإن لم تكن هذه همَّة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين»(٢).

ويقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ عمن اشتغل بظاهر العلم عن المهم: «فربما رأيت إمام مسجد يتصدى للإقراء، ولا يعرف ما يفسد الصلاة، وربما حمله حب التصدر ـ حتى لا يرى بعين الجهل ـ على أن يجلس بين يدي العلماء ويأخذ عنهم العلم، ولو تفكروا لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثم فهمه، ثم

(١) الرسالة، ص ١٩.
(٢) الفتاوى، ٢٣ / ٥٤.

العمل به، ثم الإقبال على ما يصلح النفس ويطهر أخلاقها، ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع. ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم»(١).

٨ ـ قَصْر معاني الآيات على قوم مضوا، أو أحوال خاصة قد انتهت:

أو أوضاع مضت، وأن الواقع لا يدخل تحت ما في القرآن من الهدي والإرشاد والبيان؛ ولذا كان هذا صارفاً لكثير من الناس عن إمعان النظر في القرآن والبحث عن الهدى فيه، وطلب الشفاء منه، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله! إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك»(٢). وقال الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: «وربما سمع بعضهم قول من قال من المفسرين: هذه نزلت في عبَّاد الأصنام، هذه في النصارى، هذه في الصابئة، فيظن الغُمر أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن»(٣).

وما أشبه هذا بما فعله كثير من الناس حينما يحصرون هدي القرآن في شعائر محدودة كالطهارة والصلاة والصوم والزكاة ونحوها.

ويهجرون هديه في مجالات أخرى كالاقتصاد والإعلام والتعليم، وما كان حجتهم إلا أن هذه مجالات حديثة لا تدخل تحت أحكام القرآن.

فينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن أن يجعل القرآن خطاباً موجهاً إليه، وأن

(١) تلبيس إبليس، ص ١٠٩.
(٢) مدارج السالكين، ١ / ٣٤٣.
(٣) تحفة الطالب والجليس، للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، ص ٥٩، نقلاً عن مجلة البيان، العدد ١٦٢، ص١٣.

«يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن؛ فإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود، وإنما المقصود أن يَعتبر بها ويأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾ [**الأنعام**: ١٩]. قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله»، وإذا قدَّر ذلك لم يتخذ قراءة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه»(١).

«إن النص القرآني معد للعمل لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب؛ ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك وفي كل تاريخ، معد للعمل في النفس البشرية إطلاقاً كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة؛ بنفس القوة التي عمل بها في الجماعة الأولى»(٢).

٩ ـ الانشغال بالمبهمات:

فإن الاهتمام بتفاصيل الحوادث التي لم تذكر صارف عن التدبر وعن مقاصد الآيات العظيمة، فكثيراً ما يرد في القرآن أعيان وأماكن وأعداد مبهمة ولم يبينها الرسول ﷺ، فهي أمور لا يتوقف عليها عمل، ولا يحصل بها علم نافع يحتاج الناس إليه، وقد هوَّن الله من شأن معرفة الناس بعدد أصحاب الكهف في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا**

(١) موعظة المتقين من إحياء علوم الدين، القاسمي، كتاب آداب تلاوة القرآن، ص ٨٤، طبعة دار الفكر، بيروت. بتصرف.
(٢) الظلال، ج ٥، ص ٢٨٣٦.

تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]؛ فعلم بذلك أن عددهم لا طائل تحته، فمثل تلك الأمور لا فائدة فيها تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، والبحث عنها لا طائل تحته ولا فائدة فيه(١).

١٠ ـ النظر في القرآن من خلال مفهومات قاصرة:

ومن خلال تلك المفهومات القاصرة تفهم الآيات وتفسر المقاصد، ويخصص العام ويقيد المطلق، ومن خلال خلفيات سابقة يُحكم على النصوص فلا ينتفع القارئ بقراءة القرآن، ولا يحصل له التدبر المقصود، فهو يردد الألفاظ وقد زاغ قلبه عن المعنى المراد أو قصر نظره أو ضل فهمه.

ولعل من الشواهد على ذلك ما يأتي:

المثال الأول: في تأويل ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٥] ما رواه أسلم أبي عمران التجيبي قال: «كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر... فحمل رجلٌ من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس، إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه؛ فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه؛ فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [**البقرة**: ١٩٥]. فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو»(٢).

(١) قاله الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في تفسيره: (أضواء البيان)، ٤ / ٤٣، وقد ذكر ـ رحمه الله ـ أمثلة عديدة على مبهمات ذكرت في القرآن، ثم قال عنها: «لا فائدة في البحث عنها، ولا دليل على التحقيق فيها».

(٢) رواه الترمذي، ٢٩٧٢، واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أبو داود، ٢٥١٢؛=

المثال الثاني: في تأويل: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾ [**المائدة**: ١٠٥]، عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [**المائدة**: ١٠٥].

وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمهم الله بعقاب»(١).

المثال الثالث: في تأويل قوله - تعالى -: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ [**التوبة**: ٣١].

قال عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ**﴾ [**التوبة**: ٣١]، فقلت: يا رسول الله، لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلون لكم ما حرم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟! قال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم»(٢).

المثال الرابع: في تأويل: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ [**الكافرون**: ٦]، فكثيراً ما

= ورواه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي، ٢ / ٢٧٥؛ والطيالسي، ٥٩٩؛ والطبراني في الكبير، ٤٠٦٠؛ والبيهقي، ٨ / ٩٩؛ وقال ابن حجر: وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم، انظر: العجاب في بيان الأسباب، ١ / ٤٨٠؛ وقال محقق زاد المعاد: (٣ / ٨٨): إسناده صحيح.

(١) رواه أبو داود، ٤٣٣٨؛ والترمذي، ٣٠٥٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه، ٤٠٠٥؛ وأحمد، ١ / ٢، ٥، ٧، ٩؛ وابن حبان، ١٨٣٧ وصححه، وصححه النووي في رياض الصالحين، ١٠٦، باب في الأمر بالمعروف.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، ١٠ / ١١٦، واللفظ له؛ ورواه الترمذي، رقم ٣٠٩٥، وعنده أنه قال: «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه»؛ ورواه ابن جرير، ١٦٦٣١؛ والطبري من رواية حذيفة - رضي الله عنه - ١٦٦٣٤، وفي جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، رواية صحيحة موقوفة على حذيفة رضي الله عنه، ٢ / ٩٧٧.

تسمع من يستشهد بهذه الآية على ترك الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، باعتبار أن لكل إنسان سبيله، ولا أحد يعترض عليه، ولكلٍ دينه وطريقته، وما علم أن الآية حجة عليه لا له، وأنه لو أراد أن يعمل بمقتضى الآية؛ عليه أن يعلن كفر من خالفه في الدين، وأن يتبرأ منهم، وأنه لا يلتقي معهم في شيء، وأن ما هم عليه كفر وضلال مهما ظنوه ديناً أو عبادة.

وهكذا القول في أصحاب البدع والمخالفات والمعاصي التي دون الكفر، فمقتضى الآية أن يصرح لهم بالبراءة من فعلهم، وأنهم مخالفون للحق في فعلهم، وأنه ليس من دينه في شيء.

١١ ـ قصر قراءة القرآن على أحوال خاصة:

كمن لا يسعى إلى سماع القرآن إلا عند مرضه، أما في حال صحته وكمال عقله وصفاء ذهنه فإنه لا يتشوف إلى سماع القرآن أو قراءته؛ حيث حرم نفسه السبيل إلى تدبر القرآن.

وكذلك حال من لا يعرف القرآن إلا تلاوة عند العزاء[1]، أو عند افتتاح البرامج، أو في المناسبات العامة، ولا يعرف له وقتاً آخر لسماع القرآن أو قراءته؛ فأنى له التدبر والتأمل والاعتبار والتأثر وهذه حاله؟!

(١) ولا يخفى أن هذا بدعة؛ حيث لم تعرف عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه رضي الله عنهم.